الحياة العقلية فى الإمبراطورية العثمانية وفى مصر

فى القرن التاسع عشر

للكاتب الألمانى (كارل بروكلمان)

— ٢ —

ترجمة الأستاذ مبارك إبراهيم

من أجل ذلك كان الأدب التركى فى تلك السنين يعتمد على دعامة من الشعر الفرنسى المعاصر ، متخذاً كلمة « الفن للفن » رمزاً له وشعاراً . ولم تثمر تلك الفترة غير أحاسيس سداها ولحمتها التشاؤم الوبيل .

وقد التف عشاق ذلك الأدب حول صحيفة « ثروت فنون » وهى الصحيفة التى نشرت روايتى « خالد ضياء » وهما « الأزرق والأسود » و « الحب المحرّم » . وهما الروايتان اللتان أقامتا — على الرغم من أسلوبهما الذى تنقصه الأصالة — أول الأسس الصحيحة لهذا اللون من الأدب بين الأتراك .

وتبعه فى هذا « أحمد حكمت » الذى استرعى انتباه القراء بقصصه القصيرة التى كانت تدور بصفة عامة حول دنيا الجنيات .

وقد فكت ثورة تركيا الفتاة عن الأدب — فور قيامها — أغلالَ الرقابة وأصفادها . ولم يبق على ولائه لمثل العصر السالف إلا شعراء قليلون . ومنهم الشاعر الفنان « أحمد هاشم » .

وقد نافس كتّاب الترك العثمانيين فى نشر الآراء الجديدة وإذاعتها كتّابٌ من التتار فرّوا من روسيا القيصرية . وقد تزعم هذه الحركة « ضيا جوك ألب » الذى اعتبره الخلفاء مصدر خطر عليهم ، ثم نفوه إلى مالطة بعد احتلال استانبول .

وقد ألهب هذا الشاعر نفوس الشباب بقصائده الرمزية وبدروسه فى الجامعة التى أنشئت فى سنى الحرب العالمية . وكذلك بمحاضراته . وغرس فى نفوسهم مثله الوطنى الأعلى الذى عبرت عنه الكاتبة « خالدة أديب » أدق تعبير بروايتها « طوران » .

ولم تقوض الكارثة التى حلّت بالبلاد فى أعقاب الحرب بنيان هذه النهضة ، بل إن هذه النهضة قد لقيت بعثاً جديداً قوياً على أيدى الحكومة الوطنية .

وبينما قد أحدث الاتصال بالمدنية الأوربية فى تركيا ذاتها انقلاباً تاماً فى الحياة الأدبية . فإن المثل العليا القديمة ظلت باقية دهراً أطول فى الممالك العربية ، على الرغم من أن تلك الممالك قد خضعت من قبل للنفوذ الأوربى فى مكابدة وصبر ، أكثر مما كابدت وصبرت تركيا ، ولم يبدأ انهيار تلك المثل العليا فى البلاد العربية إلا تدريجاً ، وذلك فى الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الأولى .

وقد أعاق انفصال مصر سياسياً عن الإمبراطورية العثمانية ، وهى الإمبراطورية التى ظلت الأمم العربية — ماعدا بلاد شمال إفريقيا — خاضعة لها ، أعاق هذا الانفصال توحيد نهضة الأدب العربى وتقدّمه .

وقد قوى هذه الإعاقة فقدان الأهداف القومية التى تجمع بين المسلمين وبين المسيحيين الأكثر نشاطاً واجتهاداً .

وفى سوريا قام المارونيون — وقد كانت غالبيتهم فى خدمة الإرساليات المسيحية التى قامت بتأسيس الكلية الأمريكية فى بيروت ، ومنافستها كلية « سان جوزيف » الجزويتية — قاموا ينافس بعضهم بعضاً فى إحياء الأدب العربى القديم وإعادته خالصاً نقياً .

وكان هذا الإحياء فى عمومه ، وكانت تلك الإعادة فى مجملها ، من عمل « ناصيف اليازجى » (المتوفى عام ١٨٧٩ فى بيروت) وهو الذى كان فى قصائده يهتدى بهدى المتنبى . كما كان فى مقاماته يقتفى آثار الحريرى .

وقام من بعده « مارون النقاش » (المتوفى فى بيروت عام ١٨٧١) فحاول أن ينشىء لقومه « دراما » عربية على غرار الدراما الفرنسية . ولكن محاولته كانت عقيما ، ولم يجد من يقفو أثره .

وقد أعاقت رقابة المطبوعات التركية نهضة الصحافة فى سوريا بنفس الصرامة التى كانت تلاقيها صحافة تركيا فى « استانبول » . واستتبع هذا أن كثيراً من الصحفيين السوريين النابهين فضلوا أن ينزحوا إلى مصر للإقامة بها . ولا سيما أن السلطات البريطانية كانت قد أتاحت للصحافة قسطاً أوفر من الحرية .

أما الأدب العربى فى سوريا زمان « عبد الحميد » فقد كان يمثله « النبهانى » الذى كان رئيس المحكمة الشرعية فى بيروت . والذى كان صديقاً لأبى الهدى إمام السلطان .

وقد أبدى « النبهانى » هذا نشاطاً خصباً ذا ثمر فى نشر الأدب العربى على الطريقة الإسلامية القديمة معارضاً بذلك نفوذ أوربا المسيحية .

أما فى مصر فقد وقف المسلمون أول أمرهم وحدهم حملة لواء الأدب العربى .

أما القبط فقد دخلوا الميدان بعد الحرب العالمية الأولى وتحت الظروف السياسية الحديثة . وقد أنتجت عناية « محمد على » واهتمامه بالحضارة الأوربية كتباً مترجمة لا يحصيها العد ؛ وفضلاً عن الكتب العلمية والفنية التى كانت مرغوبة فى أول الأمر . فإن الروايات الفرنسية المترجمة قد ظهرت بكثرة . وهى روايات ترجمت فى الأعم الأغلب دون مراعاة الاختيار .

وقد طالما سيطرت هذه الروايات على ذوق الجماهير . وقد طالما وقفت حائلاً دون تتبع الصناعات القومية . ثم قامت بعدئذ محاولة منفردة لم تجد من يقلدها . وهى ترجمة سليمان البستانى السورى للإلياذة فى مقطعات ذات قواف متخالفة . تشعر القارئ بجو الملاحم . ولكنها لم تستطع أن تقترب إلى الجمهور العربى إلا قليلاً .

أما فى الشعر فقد انتشر تقليد زعماء الأدب فى عهد العباسيين . وذلك على لسان وزير الحربية «سامى البارودى» الذى نفاه البريطانيون إلى جزيرة سيلان بعد الثورة العرابية .

والذى لم يستطع العودة إلى وطنه إلا وقد أدركته الشيخوخة ، وقد بثّ أحزانه — وهو فى منفاه — فى قصائد مؤثرة ذات أصالة .

وينتسب « محمود سامى » إلى أصل تركى . وكذلك كان يجرى الدم الأجنبى ممتزجاً بالدم العربى فى عروق شاعر البلاط الخديوى وأحمد شوقى » الذى كفّر عن كلّ طائفة كتبها إلى سيده أثناء الحرب العظمى بأن نفاه الإنجليز إلى إسبانيا . وقد كان « أحمد شوقى » فى أدبه لا يحيد قيد أنملة عن الأنماط القديمة . ولم يتخذ لأدبه مسالك جديدة إلا فى الفترة التى أعقبت الحرب .

أما فى النثر القصصى فقد سيطر جورجى زيدان السورى على الموقف برواياته التاريخية العديدة التى تحدث فيها عن الماضى الإسلامى . وتلك الروايات ، وإن تكن ليست عميقة الغور ، فقد ملكت عقول قرائها بما فيها من بيانات تصويرية فى أسلوب سهل . وبذلك مهد الطريق لازدهار هذا النوع من الأدب فى فترة ما بعد الحرب .

وقد حاول « زيدان » بعد ذلك أن يجعل قراء العربية يألفون النتائج التى وصلت إليها بحوث الأوربيين فى التاريخ والاجتماع .

وفى مصر كانت الدراما تمشى فى تقدمها مشياً وئيداً ؛ وذلك لفقدان النماذج التى يمكن احتذاؤها .

وعلى الرغم من المجهود التى بذلت لتمصير التراجيديا الكلاسيكية الفرنسية ، فإن النجاح الحقيق لم تظفر به إلا الروايات الفرنسية الخفيفة .

وقد رجع عثمان جلال (١٨٣٩ — ١٨٩٨) إلى كوميديات « موليير » على أمل أن يجعل تلك الكوميديات مستساغة لدى قومه . وذلك بتطبيق ما جاء بها على البيئة المصرية تطبيقاً عولج بمهارة . وقد لجأ هو إلى التجديد الجرئ باستعماله اللهجة الشعبية بدلاً من اللغة الكلاسيكية

التي لا تزال تسيطر على المسرح سيطرة تامة . ولكنه لم يظفر إلا بالقليل من النجاح . حتى إن رواياته لم تمثل إلا عام ١٩١٢ ولم تلبث أن اختفت من المسرح مرة أخرى .

وقد ظهر في صحافة مصر الفتية في مادتها أسلوب جديد من النثر استعان به سياسيو مصر الذين ظهروا إبان الحكم البريطاني كوسيلة ناجحة من وسائل دعايتهم .

ونذكر من بين هؤلاء « قاسم أمين » (المتوفى سنة ١٩٠٨) وهو الذي أثار كتاباه « تحرير المرأة » (١٨٩٩) « والمرأة الجديدة » (١٩٠١) موضوع البحث في مسائل المرأة في سائر أنحاء العالم الإسلامي .

وحدث بعدئذ أن سارت تركيا قدماً بحلولها العملية في مسألة المرأة . وتبعها في ذلك قوم مصر — بعد تردد في أول الأمر — ولكن سرعان ما بلغ النجاح المدى .

ومع ذلك فالحياة الدينية في مصر كانت ولا تزال يسيطر عليها الإسلام . وهذا يرجع بصفة خاصة إلى نفوذ رجل فارسي اسمه « جمال الدين » الذي فضل — لأسباب سياسية — أن يسمي نفسه الأفغاني نسبة إلى البلاد التي قضى شبابه فيها .

وفي عام ١٨٧٠ عند ما كان حتماً عليه أن يغادر وطنه المختار بعد موت نصيره وحاميه « الأمير دست محمد » ذهب « جمال الدين » أول أمره إلى استانبول . وهناك تقبله الحكومة ودوائر الأدب بقبول حسن . إذ كان قد سبقه صيته كأديب ذي شأن ، ولو أنه لم يؤلف أي كتاب .

وقد تأثرت دوائر الأدب تأثراً بالغاً بما ألقاه من خطب ومحاضرات في الجامعة التي كانت قد أنشئت حديثاً .

وعلى الرغم من ذلك فقد نجح شيخ الإسلام في اتهامه بحرية الفكر ثم في نفيه من البلاد . فرحل يومئذ إلى القاهرة حيث لقي صدوراً رحبة . وفي القاهرة استطاع أن يعمل حراً — دون أن يكون له اتصال بالرجال الرسميين — حتى قامت الثورة العرابية . وقد بث في الشباب المصري الأمل في إمكان التحرر من السيادة الأوربية . وذلك إذا أشربت عقولهم ثقافة الغرب وعلومه . وذلك بقصد الدفاع عن الإسلام كدين غير رجعي .

وقد نفي « جمال الدين » إلى الهند بعد الاحتلال البريطاني . ولكنه استطاع عام ١٨٨٢ أن يذهب إلى باريس حيث أصدر هو وتلميذه « محمد عبده » صحيفة « العروة الوثقى » الأسبوعية . وكانت صحيفة قوية النفوذ على الرغم من عمرها القصير .

وفي عام ١٨٨٥ عاد تلميذه « محمد عبده » إلى بيروت أولاً ، ثم في عام ١٨٨٨ إلى وطنه مصر حيث استقبله قومه وهم يحيونه تحية رسول جاء لتحريرهم . وبدأ حياته الرسمية كقاض في المحاكم الوطنية . ثم عين مفتياً للديار المصرية عام ١٨٩٩ . وظل إلى حين وفاته (في الحادي عشر من يوليو عام ١٩٠٥) معنياً بإصلاح القوانين . كما ظل عاكفاً على إلقاء الدروس في الجامعة الأزهرية الموقرة . والشيخ محمد عبده هو موجد الحركة الحديثة في الإسلام . والقصد منها الرجوع إلى آراء صاحب الشريعة ، وإظهار ما بتلك الآراء من عناصر البقاء .

ولا تزال آراء الشيخ مسيطرة على الحياة الدينية في مصر إلى يومنا هذا ...

(عن الانجليزية) مبارك إبراهيم